الباب الثانى

تمهيد

(٧)

لمحة عن التاريخ القديم

ما عليه كثير من المؤرّخين أنَّ موطن العرب ومنذ فجر التّاريخ البشـريّ المعروف يشـمل ما يقطنوه اليوم من المحيط إلى الخليج. وعلى ذلك شواهد لا تحصى دوّنها المؤرّخون وتشمل علاقة اللّغات والسِّمات الأثريّة والحضاريّة، وأنماط العيش ودعم ذلك وأيده كشوفات أثريّة كبيرة وكثيرة فى القرنين التاسـع عشر والعشـرين، ولمن أراد التفاصيل نحيله إلى المراجع المختارة (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨) على سبيل المثال. إلّا أنَّ تاريخ العرب وجغرافيّتهم تعرّضتا للتّزوير والإنكار فى خِضَمّ الخصومات والمنافسات مع الغرب وفى غفلة ممَّن يعنيهم الأمر. إذ كان التَّوجُّه العامُّ أن يؤرخ للعرب منذ ما قبل رسـالة الإسـلام بقليل، وبجغرافيا جزيرة العرب وحسب. وكثير من العرب لم يعنيهم أمر البحث فى حضاراتهم قبل الإسلام إذ صنّفوها حضارات وثنيّة لا تستحقُّ العناء والبحث، وكان جُلّ كدِّهم تأكيد الميلاد الجديد لأمّة العرب والمسـلمين مع ظهور الرسـول الكريم محمد ﷺ، وقيام حضارة الإسـلام على أنقاض الوثنيّة والجاهليّة القَبليّة قبل الإسلام.

ورسّـخت هذه المفاهيم حول تاريخ العرب فى الأوسـاط الأكاديميّة فى الغرب والشّرق إذ نقلها المتخصّصون العرب عن جامعات الغرب ومراجعهم ودرّسوها للنّاس كما هى إلا ما ندر!!

إلّا أنَّ وعـى العرب وظهـور حركة القوميّة العربيّة، وكذا ظهـور الصّهيونيّة العدوانيّة بدءًا من أواخر القرن التّاسـع عشـر، وزعمها بحقٍّ تاريخىٍّ لها فى المشـرق العربىّ عموما وفلسطين خصوصا ألزم العرب وغيرهم مراجعة التاريخ القديم (ما قبل الإسلام)، والدخول فى المقارنات بين اللغات والأديان والآثار لتلك الحقبة.

والشّاهد أنّ العرب فى غابر الزّمن وقبل الميلاد بخمسة آلاف عام بنَوا حضارات سبقت حضارة اليونان بثلاثة آلاف عام أو يزيد! حضارة اليونان الّتى يعدّها الغرب المعاصر أساسَ حضارتـه وملهـم نهضته كانت التّلميذ النّجيب لحضارة شـرق المتوسّـط العربيّة وبالذّات حضارة الفينيقيين والمصريّن. والفينيقيّون هم شـق البحارة من بنى كنعان شـعب فلسطين

القدامى ذلك الشّعب العبقريّ الّذى ركب البحر لأكثر من ثلاثة آلاف عام، ونقل الحضارة إلى اليونان وإيطاليا وسواحل فرنسا وإسبانيا وحتى وصلت بعض رحلاتهم إلى الجزر البريطانيّة ! وكذا سواحل الشّمال الإفريقيّ وحضارة قرطاجة هم أهلها ومؤسسوها كما أنّ ميناء فرنسا الحالىّ «مارسيل» هو من آثارهم إذ أسّسوه مركزا تجاريًا. والاسم يعنى «مرسى الله» بالعربيّة القديمة (الكنعانيّة).

ونذكر فى هذا السّياق بعض الشّعوب العربيّة الّتى بنت تلك الحضارات القديمة ومنها : السّومريّون والأكاديون والآشوريون واليابليون والآراميّون والكنعانيّون والفينيقيّون والمصريون والعمونيّون والعموريّون والأنباط أنظر من (٨: ص ٩ إلى ص ٥٠)

ويقول المؤرّخ الفرنسىّ بيير روسى (١ : ص٣٨)

«وقد نشأت حضارتنا (الغرب) خلال العصور فى مثلث محصور بين البوسفور والنّيل وسوز (Suse) عاصمة العلامتين (Elamites)، وقد أنجبتهما شعوب مصر وكنعان والأناضول والآشورىّ البابلىّ الّتى تنتمى إلى أسرة واحدة: هى الأسرة العربيّة وليس من المهمّ أن نعرف من أين جاءت هذه الشعوب، لأنّنا لن نعرف ذلك فى الغالب. وحتّى لو عرفنا ذلك فلن يفيدنا فى استنتاجاتنا. وينبغى أيضا إدراج حضارتى القرم (Crimea) وبحر قزوين (Caspienne) فى محيط هذه الحضارة».

ولقد ذكر فى التوراة فى مواضع كثيرة ما كانت عليه تلك الشعوب من تقدم وحضارة. ورد فى سفر العدد ١٣–٢٥ إلى ٢٩ ما يلى:

(ورجعوا من تجسس الأرض بعد أربعين يوما وساروا حتى جاءوا إلى موسى وهارون وكل جماعة بنى إسرائيل فى برية فاران فى قادش. وردوا خبرا عليهم وأروهم ثمر الأرض وقصوا عليهم وقالوا: ذهبنا إلى الأرض التى أرسلتنا إليها فإذا هى بالحقيقة تدر لبنا وعسلا وهذا ثمرها غير أن الشعب **الساكنين فيها أقوياء والمدن حصينة عظيمة جدا**. ورأينا هناك بنى عناق فيها العمالقة مقيمون بأرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والآموريون مقيمون بالجبل والكنعانيون مقيمون عند البحر وعلى مجرى الأردن). (٣٤ – ص ١٧٩).

كما أنّ تصحيح التّاريخ الّذى قام به غربيّون وشرقيّون فى القرن الأخير بالذّات يبيّن أنّ موطن العرب المذكور هو مهد الحضارة الإنسانيّة ومنبتها الأوّل، ومنه تحرّكت قبسات

العلم، وهدى النّبوّات وومضات النّور إلى سائر أرجاء المعمورة.. سواء كان إلى غرب المتوسّط أو شماله وإلى الشّرق وحتّى الهند والصّين.

لقد حاول الغربيّون أقصى جهدهم أن ينفُوا عن سواحل المتوسّط الأوربيّة وبالذّات اليونان وشواطئ إيطاليا الاقتباسَ والتّتلمذ على الفضاء العربيّ شرق المتوسّط. والزّعم أنّ حضارة اليونان أصيلة نبتت في أرضها دون سابق. يقول بيير روسى (١ : ص٦٢):

«هذا وفى الواقع إنّ البلاد الّتى تسمى فينيقيا والّتى هى مقاطعة من كنعان الّتى سمّيت فلسطين كانت قبل أثينا بمدّة طويلة مركزا كبيرا يونانيّا عربيًا إذا كان للّفظين معنى. نظرا إلى أنّهما مندمجان متّحدان إلى حدّ لا يمكن الفصل بينهما.

فاليونانيّة لغة عربيّة كما أنّ العربيّة لغة يونانيّة مع وجود فرق معتبر هو أن اليونانيّة كانت لغة ناقلة، فالمدد الثّقافيّ والعلميّ والدينيّ الكبير إنما كان من العرب. فلا يجوز على هذا أن نقلب الأدوار، وأن نجعل اليونان الّذين كانوا ورثة فقط آباء لأسلافهم الرّوحيين، وتجاه التّخريب القريب المهدّد لصرحنا الثّقافيّ الّذى لا يكفى لحمايته الاستظهار بالصّيغ التّقليديّة، يجب أن نعلم أن الخلاص لا يكون إلّا بتأكيد إيماننا بالقيم الّتى هى قيمنا، ولكن لا بدّ لهذا الإيمان من الاعتماد على الحقيقة والنّزاهة قبل كلّ شيء».

وكان الجهد لطمس دور العرب الحضاريّ فى التّاريخ القديم فى إطار جهد عنصريّ يغمط العرب قديما كما فعلوا أيضا تجاه حضارة العرب المسلمين لاحقا وما زالوا. إلّا أنّ تطوّر وسائل علم الآثار مع تطوّر تقنيّات العصر الرّاهن وتفسير النّقوش والألغاز فيه بيّن الحقيقة أخيرا، وما زالت تنجلى ويزداد وضوحها مع السّنين.

كما أنّ معظم كتب التّاريخ فى الغرب لا تشير إلى العرب القدامى بل اسم ابتدعوه «الشّعوب السّامية» وكان أوّل من استعمله هو المستشرق الألمانيّ «شلوسل» عام ١٧٨١م تجنّبا لذكر «العرب القدامى» الأعداء المنافسين! والواقع كلمة سامى (أى ابن نوح) تعنى إحالة الأمر إلى مجهول لا يعرفه أحد ، لشيء قبل التاريخ! انظر (١ : ص ١٢ ، ص ١٣).

لقد عاش العرب القدامى فى ممالك منوعه بعضها كبير مثل إمبراطوريات آشور وبابل وأكاد، وبعضها ممالك مدن كما كان الحال فى عرب «الشّرق العربيّ» وكان لهذه الكيانات السّبق على باقى حضارات الدّنيا. لقد أبدعوا حروف الأبجديّة والكتابة وأرقام الحساب، وطوّروا أساليب الزّراعة كما قنّنوا القوانين واستعملوا المعادن الحديد والنّحاس وغيرها فى

صناعة الأوانى، وشيّدوا وأعمروا ونظّموا قنوات الرّىّ وغير ذلك من المرافق وكل ذلك مفصل فى كتب التّاريخ والآثار.

والشّاهد أنّ هذا الفضاء الجغرافىّ الحضارىّ الرّائع بما يحويه من إمكانات ومعطيات طبيعيّة وبشريّة له السّبق والأستاذيّة والرّيادة فى إمكان التّفاعل والإنتاج والإبداع، وذلك تارة بإلهام الفطرة الإنسانيّة الأولى، وتارة بمركب الفطرة وإرشاد النبوّات.

لقد ورثنا – نحن العرب – عن أجدادنا هذا الموطن الرّائع وبعد كبوة ما قبل الإسلام صعدنا حضاريا بنور الإسلام وهديه واستعدنا موقعنا الرّائد فى الحضارة الإنسانية لقرون. ثمّ فترت عزائمنا وذوى طموحنا وتآكل عزّنا ومجدنا مع الزّمن إلى أن وصلنا إلى ما نحن فيه الآن ! فأين الخلل؟!

ولم تحول الحال بنا من الرّيادة والأستاذية إلى تلمذة بل وتلمذة لا تخلو من بلادة وكسل، ورسوب متكرّر فى امتحان التّقدّم والإبداع، وفى سباق الشّعوب نحو الأفضل والأنفع ؟!

(٨)

لمحة تاريخيّة فى رسالة الإسلام

كانت رسالة خاتم الرّسل والأنبياء محمّد ﷺ بعثا شاملا، وتجديدا كاملا لحياة العرب وسائر شعوب العالم القديم. لقد أرست تلك الرّسالة الخاتمة منظومة كاملة معصومة من القيم والأخلاق والقواعد والأوامر والنواهى رسالة بيّنت ما يحتاجه الفرد لإدارة حياته، وتدبير أموره ومعاشه، وما تحتاجه الجماعة لإدارة شؤونها وتسيير مصالحها.

رسالة حرّرت الإنسان فى كلّ شأنه وجعلته سيّدا كريما حرّا لا يدين إلّا للدّيان ولا يكون عبدا إلّا لربّ السّموات والأرض، رسالة حقنت الدّماء، وصانت الحقوق والأموال والأعراض لكلّ بنى البشر فى إطار من الأخوّة الإنسانية الشاملة. إذ لا إكراه فى الدّين، ولا فضل لأبيض على أسود؛ ولا عدوان إلّا على المعتدى وبقدر عدوانه، والأمر شورى فى كلّ شؤون الحياة وعلى رأسها إدارة الحكم.

رسالة هدمت معاقل الكبر والتّجبّر ومزاعم سلالات الأسياد والملوك. وأرست مكانها أخلاق التّواضع والرّحمة والمساواة بين النّاس لا يفاضل بينهم إلّا حميد أخلاقهم، وجليل أعمالهم.

رسالة الحريّة والكرامة والسّلام والرّحمة والسّعادة للبشريّة جمعاء.

قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ الأنبياء ١٠٧.

لقد أعادت رسالة الإسلام صناعة أمة العرب وأنشأتها إنشاءً جديدا أن وحدتها وحرّرتها من سيطرة الأمم المجاورة وأعتقتها من وثنيّتها وسيئ أخلاقها، وأرست فيها روحا وثّابة إلى العلى والإصلاح والرّيادة والإبداع روحا حكيمة أن جعلت بدويّا بسيطا هو ربعى بن عامر ﷺ يخاطب كسرى الفرس الّذى أنزله قومه منزلة الإله! يخاطبه قائلا: «لقد بعثنا الله لنخرج النّاس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدّنيا إلى سَعة الدّنيا والآخرة». وتأمّل أيّها القارئ أفق هذا البيان!

لقد جعلت هذه الرّسالة، رسالة الحرّيّة والكرامة العبد الحبشىّ بلالاﷺ والّذى كان حقيرا قبل الإسلام سيّدا لنبيل المحتد من قريش – عمر بن الخطاب ﷺ بسبقه فى الإيمان.

هذه الرّسالة هى ثورة الحرّيّة والكرامة والأعمار الدّائمة الملهمة العابرة للنّفوس والعقول والقلوب والحدود والأمم والشّعوب والبلاد والقارّات والآفاق بل وأقطار السّموات والأرض!

(٩)

فى الصّدر الأوّل

تمثّلت رسالة الإسلام فى سيرة الرّسول الخاتم ﷺ، وهو النّموذج الكامل والمثل الأعلى لكلّ إنسان يبحث عن الحقّ وعن الحياة الإنسانيّة السّويّة الرّاقية فى أعظم صورها.

لقد كان ﷺ أرحم النّاس وأحلم النّاس وأعدل النّاس وأتقى النّاس لله، وكان أكثر النّاس مشورة لأصحابه برغم الوحى المعصوم.

كما أرسى ﷺ الأسس لدولة نموذجيّة بما حوته من تنوّع فى الدّين (مسلمين، يهود، نصارى، وثنيّين) حفظ فيها حقّ الجميع، وأنصف فيها الفقير من الغنىّ، والضّعيف من القوىّ، ثمّ سار على هديه الخلفاء الرّاشدونﷺ– أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ – فكانوا خير المتأسّين برسول الله. أقاموا العدل وكانوا خدما أوفياء لأمتهم، حفظوا الأموال والأعراض فى تواضع من حاكم لمحكوم لم تشهد له البشرية فى تاريخها مثيلا.

كانوا أزهد النّاس فى الدّنيا، وأزهد النّاس فى الحكم والسّلطان.

وخلال ذلك العهد القصير في حساب السّنين بنيت دولة إيمان، غيّرت مسار البشريّة جمعاء، وأدخلت في قاموس الزّمن أنبل العلاقات بين النّاس، وأرقى المواثيق بين الحاكم والمحكوم. فكان أن شبّ جيلُ أقدامه على الأرض وأحلامه في رحاب الله في السّماء!

لقد انقلبت القلوب والنّفوس والعقول لجيل كامل في عقدين من الزّمان من ظلام الجاهليّة إلى نور الإسلام، نور العزّة والكرامة والطُّهر والتّقى والنّبل والنّجدة، وغسلت القلوب والعقول وطهّرت تطهيرا. فأصبح شابّ شرس عنيف في جاهليّته لا يملك إلّا سيفه وفرسه وهو عمر بن الخطاب ﷺ حاكما لأكبر وأقوى دولة في ذلك الزّمان. وأصبح ذكره عبر العصور كأعدل حاكم عرفته البشريّة وحتّى يومنا هذا! ودانت له الأمّة عن رضاً وقبول، ولم يختلف عليه أحد في دولة مترامية الأطراف طيلة خلافته.

وقال قائلها : «حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا أمير المؤمنين».

(١٠)

وبعد الصّدر الأوّل

لقد كان الإنجاز الهائل الرّائع المعجز الّذي حقّقه المسلمون الأوائل في بناء دولة عظمى خلال عقدين من الزّمان مثيرا لكلّ أعين المشهد البشريّ في زمانهم.

وكان أن تحرّكت قوى بليل – جلّها من الدّاخل – لعلّها تنال ممّا أُنجز، قوى تنوّعت بين حاسد وحاقد ومنافق وطامع وساذج وجاهل وغافل.

وكان أن تمكّنت تلك القوى – بعد استغلالها لما بقي في بعض النّفوس والأوساط من دعوى الجاهليّة وروح القبليّة – من إثارة الفتنة الكبرى الّتي عصفت بالدّولة الإسلاميّة الأولى. وبعد صراع مع الذّات في مشهد رهيب ومأساة متعدّدة الفصول تمكّنت القوى المتصارعة من التّصالح على تمكين الغالب من الحكم في مخالفة لقاعدة الشّورى الإسلاميّة المأمور بها في القرآن.

وإن كنّا نعذر أسلافنا فيما ارتؤوه لزمانهم حقنا لدمائهم، ومن ثمّ اختيارهم الممكن المتاح، وإعمالهم حكم الضّرورة.

إلّا أنّ ما انتهت إليه الأمور كان ثلمة فادحة في حوض الإسلام الشّورى الرّحيم النّاقض للعصبيّات والقبليّات الهادم للوجاهات باعتلاء الولايات!

لقد بدت الأمور أقلّ فداحة فى بداياتها إلّا أنّ تفاعلها مع السّنين أظهر ما للاستبداد من علاقة وجوديّة مع الفساد، وحتّى آل الأمر إلى مصادرة إرادة الأمّة. ومن ثَمّ تحوّلت دولة الإسلام إلى ملك عضوض يورّثه الآباء للأبناء أيّا كان خلقهم وعلمهم وأهليّتهم!

لقد تولّى الحكم- تحت راية التّوريث - صبيان لم يبلغوا الحلُم، كما تولّى من شهد النّاس عليه بالعته أو ما يقرب منه!

لقد آلت أمور الولاية الكبرى فى دولة الإسلام فى كثير من الحالات إلى نقيض المقصد الشّرعىّ منها دون منازع. وكانت المصيبة مركبة. إذ فضلا عن الاستبداد أى حكم الفرد الحاكم دون معقّب أو رقيب، كان المستبدّ - وفى ظل التّوريث التّلقائىّ - ليس بالضّرورة عاقلا، وليس بالضّرورة خلوقا وليس بالضّرورة حتّى بالغا سنّ الرّشد! ومن ثَمّ أصبحت مؤسسة الحكم - وفى غالب تاريخها - وكرا للجور والتّحكم فى رقاب النّاس وأموالهم وأعراضهم، وجزيرة للتّرف وجمع المال والثّراء دون حسيب أو رقيب، ودائرة يلتفّ حولها المنافقون والوصوليّون.

ثمّ حيث إنّ الحكم بالوراثة، أى فى أسرة تنتمى لعشيرة ما وقبيلة ما أو جنس ما أو لون ما.. تحولت قضيّته إلى مأزق سياسىّ اجتماعىّ دائم بل نازف.

وكان التّساؤل دائما يقرع القلوب: لم أنتم وليس نحن؟! وبم تمتازون علينا؟! وكيف لكم أن تستأثروا بكلّ هذا «العزّ» و «الجاه» و «المال» و «السّلطان» ونكون نحن خولا لكم؟!

لقد فقد المسلمون فى مجتمعهم اتّجاه مؤسّسة الحكم القواعد الرّبانيّة القائلة «لا فضل لعربىّ على أعجمىّ ولا لأبيض على أسود إلّا بالتّقوى» (البيهقى فى الشعب ٥١٣٧) «وكلّكم لآدم وآدم من تراب» (البيهقى فى الشعب ٥١٢٧) » وقال الله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ الحجرات: ١٣.

كما كان التّساؤل النّبيل من غيورى الأمّة: لم هذا الانحراف عن جادّة الإسلام، بل جادّة الفطرة السّليمة فى إدارة المجتمعات والممالك؟! كيف الخروج من هذا الدّاء العضال؟!

هذان التّساؤلان المحقّان كانا بابا لاضطرابات وثورات ونزاعات لم تنتهى يوما فى عالم الدّول الإسلاميّة المتعاقبة.

ولننظر - مثلا - فى تاريخ الدّولة الأمويّة وما اكتنفها من قلاقل وفتن والّتى لم تتوقّف إلّا عامَى الخليفة الرّاشد الخامس عمر بن عبد العزيز ﷺ ولنتأمّل ما يصنعه عدل الحاكم

وزهده وتجرّده وتواضعه حيث وظّف مؤسّسة الحكم لخدمة النّاس، وقضاء حوائجهم كما هو ذات المقصد الشّرعيّ منها.

والشّاهد أنّ الثّورات والفتن لم تنته حتّى سقطت دولة بنى أميّة، وخلفتها دولة بنى العبّاس، – وللأسف – بشعار لا يمتّ لصحيح الشّرع الحنيف بصلة، وهو بدعوى أحقّيتهم فى الحكم لقرابتهم من رسول الله – وللأسف أيضا – أعملوا سخيمة الثّأر فيمن سبقهم بلا حدود. وساروا على ذات سيرة المستبدّين السّابقين!

وأذكّر القارئ الكريم – الّذى قد يُصدم – أنّ ميزاننا هنا هو ما تأمر به قيم الإسلام دون «لكن»! لا ما يسوّغه الطّامحون والطّامعون لبناء إمبراطوريّات وممالك دون وازع!

وكان أن أصبحت دولة بنى العبّاس أيضا نهبا للقلاقل والثّورات والفتن. بل وقسمت – بعد لأى – إلى دويلات وممالك ينافس ويعادى بعضها بعضا.. إلى أن أصبحت أثرا بعد عين.

«خليفة» يقبع فى قصره يستمتع بنسائه وثروته، وحوله جند يأسرونه ولا يحرسونه! إلى أن جاء الوعد الموعود ووصل طوفان المغول فحرق الأخضر واليابس.. خرّب البلاد وقتل العباد بالملايين!

ثمّ انظر فى تاريخ الدّولة العبيديّة (الفاطميّة!) والّتى بدأت سلطانها بشعار غريب عن روح الإسلام وهو حقّ الحكم بالنّسب إلى فاطمة الزّهراء ﷺ، وليس لنا هنا أن نناقش هذا النّسب الّذى وإن صحّ ليس له علاقة بحكم أو سلطان!

والأدهى والأمرّ أنّ الاستبداد وتقديس الأفراد بذريعة الانتماء العرقىّ، والمنافى لروح الإسلام الّذى ساوى بين البشر جميعا، ساق إلى إضفاء العصمة على الحكّام وانتهى بتأليههم!

ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يا فاطمة لا أُغنى عنك من الله شيئا» (مسلم ٣٥١) وقال: «لا يأتينى النّاس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم» أو كما قال ﷺ.

لقد سيطرت هذه الدّولة المستبدّة لقرنين ونصف على رقعة شاسعة من العالم العربىّ، واكتنفها الكثير من الفتن والمصائب كغيرها من ممالك الاستبداد الّتى صادرت المجتمعات والأوطان ليحيى الحكّام، وأتباعهم فى قصورهم وترفهم! وكان من «نوافل!» دولة الفاطميين أن سقطت القدس عام ٤٩٢ هجرى (١٠٩٩م) فى يد الصليبيين وكانت فى ولاية تلك الدولة.

ثـمّ لنعتبر بمـا نفقده عند التّفريط في مبدأ شـورى الحكم.. دولـة الأيّوبيّين، وبطلها المجاهد الفاتح النّاصر صلاح الدّين الأيّوبيّ، وما له من فضل على كلّ مسـلم بجهاده في الأرض المقدّسـة فلسـطين وتحرير القدس بعد اغتصاب طويل... بعد موته رحمه الله ورث الحكم إخوته وأبناؤه اقتسموا المملكة بينهم بل منهم من مالأ الصّليبيّين نكاية في منافسه!

ونتسـاءل أين الأمّة بملاييينها ومصلحتها وكرامتها من هذا التّصرّف الفوقيّ المشـين؟! وكيـف تصبح مصالح الأمّة وأمنها القوميّ ووحدة أراضيها – كما يقال الآن – ذات اعتبار فرعيّ ثانويّ يقدم عليها إرضاء أخ أو ابن بملك مستقلّ يتسلّط عليه ويتحكّم فيه؟! وأين من هذا الإسلام العظيم بقيمه وتعاليمه وما يأمر به؟!

ثمّ حدّث ولا حرج عن عهد المماليك وما اجترحوه من اسـتبداد وما ارتكبوه من قسـوة في حقّ المحكومين.

وكذا عهد السّـلطنة العثمانيّة الّذى غلب عليه التّسـلّط والاستبداد وتعطيل مسيرة الأمّة الفكريّـة والعلميّة والتّنموية، حيث مكّن ذلك كلّه – وفي نهاية المطاف – الأعداء من أمّة الإسلام لضعفها وهوانها وتخلّفها المشين في مجال العلم.

ونحن هنا لا ننسى ما قام به المجاهدون من كلّ المستويات بما فيهم بعض الحكّام في العهدين المملوكيّ والعثمانيّ بالذّود عن حرمة الأوطان بل والغزو في مقابل أعداء الخارج، إلّا أنّ هـذه مهمّـة واحدة من واجبات عديدة على ولاة الحكـم القيام بها وعلى رأس هذه الواجبات: رحمة النّاس والعدل بينهم والأخذ بأيديهم إلى طريق العلم والتّقدّم، وكذا حفظ المال العام.

كمـا نذكر أنّ جهاد الدّفع والغزو كان وقوده أموال العامّة وأرواحهم، وجل الفضل فيه لجماهير النّاس.

لقد كان العهد العثمانيّ سلسـلة متكاملة لا تنقضي مـن التّمرّدات والثّورات والقلاقل، والحروب الدّاخليّة.

وكان وراء ذلك كلّه الفسـاد العامّ لنظام الحكم باسـتبداده وترفـه وقصر نظره.. إلى أن آلت الأمور عام ١٩٠٠م – كمّا يقول التّاريخ – أن كان ١ ٪ واحد بالمائة من رعايا الدّولة العثمانيّة قادرين على الكتابة، والقراءة ونسبة وفيّات الأطفال ٨٠ ٪!! (١٠ – ص ٨٧٦).

أيليـق هذا بالأمّة الّتى كان أوّل ما أنزل عليها من وحي هو ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ العلق ١؟!.

ونذكر القارئ هنا أنه فى العام ١٩٠٠م طارت الطّائرة، وسار القطار والسّيّارة. وأضاءت الكهرباء وتكلّم الهاتف واشتغل اللّاسلكيّ، واستعمل التّصوير الحديث وكلّ ذلك من إبداع غير المسلمين ودولهم!

وقد يقول قائل: إذا كان الأمر كذلك، وكانت مؤسّسة الاستبداد، وما تجلبه من مصائب هى السّائدة فى الحكم فكيف إذا حقّق العالم العربىّ الإسلامىّ فى ظلّ الدّول المتعاقبة إنجازين عظيمين وهما:

١ - الفتوحات الّتى جعلت من دولة الإسلام إمبراطوريّة مترامية الأطراف امتدّت من الصّين إلى آسيا الصّغرى وحتى قلب أوربا الشّرقيّة.

٢ - الحضارة الإسلاميّة العربيّة الّتى ملأت الدّنيا نورا وعلما وإبداعا فى كافّة شؤون الحياة.

ولفهم هذا التّناقض الظّاهرىّ لا بدّ من التّذكير بالانقلاب المعجز الّذى أنجزه الإسلام العظيم فى شخصيّة المسلم العربىّ، وغير العربىّ. الإسلام الّذى صنع من ملايين الرّجال أفرادا وجماعات كلّ رجل منهم بأمّة... طاقة وتضحية وتجرّدا وفداءً وفتوّة وغيرة ونجدة. لقد كانوا أحرارا بإيمانهم، وتعلّق قلوبهم بمرضاة الله وحده، وأملهم فى جنّته.

لم يكونوا - برغم استبداد الحكّام وفسادهم - إلّا عبادا مخلصين لله وحده، يخافون عقابه ويرجون جنته ولا يرجون جوائز الحاكم، بل يحتقرون ما هو فيه من ترف وغفلة.

لقد زخر العالم العربىّ الإسلامىّ بملايين الزّهّاد والعبّاد والمجاهدين والمجتهدين والعلماء العاملين المخلصين، إذ إنّ نور الإسلام وجذوته فى قلوبهم وعقولهم كانت أكبر من أن يقف فى وجهها أو يوقف زحفها حاكم مستبدّ، لا سيّما فى زمن لم تكن وسائل التّسلّط قد اتّسعت كما هو الحال فى أيّامنا!

والشّاهد أنّ عنصرى الإنجاز موضوع التّساؤل وهما الفتوحات والحضارة أى التّقدّم العلمىّ والمجتمعىّ لم تكونا فى ظروف تلك الحقب فى تناقض كلّى مباشر مع سلطة المستبدّ ومن يحيط به، بل كانت الفتوحات - فى حساب المستبدّ - تمثّل دعما لشعبيّته، وتقريرا لشرعيّته، ووسيلة لتسويق سلطته وملكه لدى عامّة الناس.

ومن ثمّ كانت موضع ترحيب منه حتّى ولو احترق فيها خيرة المجاهدين. ولقد سجّل التّاريخ الإسلامىّ حالات كان الحاكم المستبدّ الفاسد هو المحرّض على الغزو - وفى وقت

غير مناسب – وذلك خدمة لسمعة ملكه، وإفراغا لشحنة المروءة والفدائيّة لدى غيورى الأمّة فى شأن خارجىّ، وبعيدا عن شأن الحكم وهموم الدّاخل.

كما أنّ التّقدّم العلمىّ والمجتمعىّ كان متاحا – إلى حدّ ما – دون دعم مؤسّسة الحكم. ولقد موّل ذلك مجتمع فيه الزّكاة ركن من أركان الإسلام، والقاعدة الشّرعيّة «ما نقص مال من صدقة». فكانت مؤسّسة الأوقاف بكلّ أنواعها، والصّدقات والتّبرّعات هى الرّافد لأنشطة الحضارة كافّة.

والشّاهد أنّ حيويّة المجتمع المسلم الّتى أنشأها الإسلام بما زرعه فى النّفوس من عبوديّة لله وطلب لمرضاته والطّمع فى جنّته وما لفريضة الجهاد من عميق الأثر فى نفس المسلم وجليل الثّواب فى محكم التّنزيل جعل استبداد الحاكم وفساده أقلّ وطأة وأحقر شأنا من أن يمنع الفريضتين الجليلتين: الجهاد وطلب العلم، بل إبطاء وحسب، ومن ثمّ كان ممكنا – برغم معوّق الاستبداد والفساد – أن تفتح الفتوح وتنشر الدّعوة وتبنى الحضارة وإن أصابها الإبطاء تدريجا.

لم يفتح الأمصار الحاكم وحاشيته بل فتحها مئات الآلاف من المجاهدين الّذين حملوا أرواحهم على أكفّهم طلبا للشّهادة فى سبيل الله. كانوا هم من حرّض على الجهاد وأزّ الحاكم أزّا على الأمر بذلك.

وحاشا أن يكون مقصد هذا المقال الحطّ من دور الحكّام فى الدّفع والغزو دون غريلة أو تمييز. لكن المقام ليس بحث تاريخىّ بل استخلاص عبر موجزة، ومن ثمّ قولنا هو الأعمّ.

وبالطّبع يستثنى قطعا فتوحات الصّدر الأوّل عهد الرّاشدين، وبعض من عهد معاوية، وفتوحات مجاهدى شمال إفريقيا والأندلس، وبطولات آل زنكى والنّاصر صلاح الدّين ودفع قطز والظّاهر بيبرس وقلاوون، وغزو محمد الفاتح وسليمان، وغيرهم كثير من أمراء المسلمين – وهم فى عداد الكلّ قليل – من مختلف الأعراق، وعلى مرّ العصور ممّن كانت حروبهم لوجه الله سبحانه وحده.

إنّنا بهذا المنحى لا نبتغى إلّا الإنصاف، ونسبة الفضل لأهله، ومن ثم فهم العبرة من التّاريخ واستيعابها.

إنّنا نرى أنّ من فتح الفتوح ونشر الإسلام فيها هم مجاهدو المسلمين. فتحوا البلاد بدمائهم وأموالهم، وقدّموا للبلاد المفتوحة الإسلام بعلمهم وأخلاقهم. قام بذلك ملايين

المجاهدين وأهل التّقى والعلم والغيرة ابتغاء مرضاة الله، وكان دور الحاكم ومؤسّسته فى ذلك ثانويًا وفى معظم الأحوال. ولو كان الحاكم صالحا رائدا حقّا لكان من قرائن ذلك ما يلى:

١ - أن يتّقى الله فيما ولّى فيه، وأن يقيم العدل فى ذلك دون تمييز.

٢ - أن ترى منه الهمّة فى قيادة الجيوش والدّنوّ من خطر القتل وفضل الشّهادة.

كما أنّنا فى هذه العجالة لا نبغى إدانة أحد أو إعلاء أحد على أحد بل نقرّ أنّ كلّا أفضى لما قدّم شعوبا وحكّاما والله حسيبهم جميعا. وندعو لهم جميعا بالمغفرة والرّحمة - إلّا أنّ ذلك لا يمنعنا بل يؤكّد واجبنا فى استخلاص العبرة من تاريخ الأمّة لبناء مستقبلها.

كما نذكّر هنا بمقاربة فيها عبرة لمن يعتبر !

مَن فتح البلقان؟! لقد فتحها الجيش العثمانىّ فى القرنين الخامس عشر والسّادس عشر الميلادى، وللأسف لم نُحسن الحكم ولا نشر الدّعوة بين سكّان البلاد المفتوحة، وكانت النّتيجة ما نراه اليوم الإسلام فيها غريب ومضطهد ولا يتجاوز عدد المسلمين ١٠ ٪ (عشرة بالمائة) من إجمالى السّكان!

ثمّ مَن فتح إندونيسيا؟! لم يدخلها جيش مسلم قط. بل نشر الدّعوة الإسلاميّة فيها التّجّار والزّهّاد والعبّاد، والإسلام فيها اليوم عزيزٌ كريمٌ يملأ القلوب والنّفوس. والمسلمون بلغوا ٩٠ ٪ (تسعين بالمائة) من أهلها، وهى أكبر بلاد المسلمين عددا!

من عبر هذه المقاربة أن ليس المعوّل على الفتح عنوة أو التّسيّد والحكم والجباية والسّلطان - وذلك سمة الإمبراطوريات والممالك الّتى تبغى العلوّ فى الأرض - بل العبرة بفتح القلوب وضمّها بالرّحمة والأخوّة الإنسانيّة والتّواضع إلى جسم الأمّة المرحومة.

قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ الأنبياء ١٠٧ .

وقال تعالى ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ آل عمران ١٥٩.

وقال تعالى ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ البقرة ١٩٠.

لا بدّ للغزو والفتح أن يكون أوّلا شرعيّا فى أصله ثمّ يعقبه عدل إسلامىّ عمرىّ مع أهل البلاد المفتوحة، عدل ليس فيه «لكن»! لا بدّ أن ينصف الفاتحون الإسلام من أنفسهم وأخلاقهم أوّلا قبل إنصافه بقتال غيرهم.

لقد اشتغل كثير من سلاطين المسلمين على مرّ العصور «بغزو» بعضهم بعضا، وأهلكوا فى ذلك الأرواح والأموال ولم يكن لذلك من هدف – وفى معظم الأحوال– إلّا العلوّ فى الأرض، وخدمة بقاء الحكم، وامتداد أجل التّسلّط.

كما أنّ الحضارة العظيمة الّتى بناها المجتمع الإسلامىّ وسادت الدّنيا لما يقرب من عشرة قرون لم يكن أغلبها فى خطّة الحكّام أو من حكمتهم أو تشجيعهم بل كان مصدرها – مثلها مثل الغزو والفتوحات – ما بناه الإسلام من نفوس كبيرة فى المجتمع الإسلامىّ نفوس توّاقة إلى البذل طلبا لمرضاة الله نفوس اتّخذت العمل والإبداع عبادة حقّة فرضها الله كما فرض الشّعائر الرّاتبة من صلاة وغيرها.

لم تر مؤسّسة الحكم خطرا فى نشاط علمىّ أو فكرىّ أو دعوة ما دام لا يقرب سلطة الحاكم فى الاستمرار والتّصرّف. ومن ثمّ كانت تلك الفسحة من الحرّيّة فى هذا المجال ولو إلى حين.

وكان الموّل للعلوم والعلماء الأوقاف والصّدقات والهبات والنّذور، والباعث لها عقول وقلوب سرت فيها حرارة الرّسالة ونور الوحى دون منازع أو منافس من فلسفات أو أهواء.

ثمّ فى حالة الفتح امتدّت يد السّلطان المستبدّ – وفى كثير من الحالات – إلى حكم البلاد المفتوحة، وسارت فيها ذات سيرتها المختلّة فلم تكن قدوة ولا قريبا من ذلك وبدلا من أن تنصف الإسلام، وترحم النّاس به أثقلت طريق الدّعاة، وصعّبت نشر الإسلام.

كما أنّ الاستبداد ومؤسّسته، وتوأمه الفساد – وهو الباعث الأوّل على الثّورات والاضطرابات والفتن الدّاخلية – جعل المجتمع الإسلامىّ فى اضطراب مستمرّ فما أن تهدأ ثورة حتّى تقوم أخرى.

فكيف للاقتصاد أن ينمو، وللعلم أن يزدهر، وللعلماء أن يأمنوا، وللمبدعين أن ينتجوا فى مجتمع مضطرب تسفك فيه الدّماء وتتصارع فيه القبائل والجماعات على الحكم؟! ولننظر ما آلت إليه أحوال الحكم والسّلطة فى الأندلس – صراع لم يتوقّف – حتّى أصبحت إمارات يقاتل بعضها بعضا ويستعين الحاكم بعدوّه الصّليبىّ على جاره المسلم إلى أن سقط الجميع!

إنّ المجتمع الإسلامىّ بجذوة الإسلام فيه، وبعقيدته فى التّوحيد، والعبوديّة لله، وفى طلب أفراده الآخرة هو مَن أنتج الحضارة الإسلاميّة العظيمة.

وكان الحاكم – في معظم الأحيان – على هوامش الغزو والفتح وصناعة الحضارة، يوظّف ذلك ما استطاع تثبيتا لملكه.

لك أن تتصوّر يا أخي القارئ ما كان يكون عليه حال المسلمين لو تصوّرنا استمرار عهد يشبه عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ – الّذي لم يدم إلّا عامين اثنين – أو قريبا منه؟!، عهد استقرار وسلام وعدل داخليّ، وسلام خارجيّ تحكمه مبادئ الإسلام الرّحمة.

إنّني أتصوّر أمّتنا في حالة كهذه قد وصلت إلى القمر علما في القرن الخامس عشر الميلاديّ! وقد عمّ الإسلام العالم القديم كلّه، وكان العالم الجديد كلّه إسلاميّ بناه المسلمون حاملو رسالة العدل والرّحمة..!!!

لقد أبدلنا الاستبداد والفساد وقرناؤه الفتن والاضطراب، والاقتتال الدّاخليّ وشقيقه صناعة العداوات مع الخارج تآكل دفع الجذوة الإسلاميّة الأولى الّتي صنعت صانعي الفتوحات والحضارة حتّى توقّف هذا وذاك ثمّ ذوت ممالكنا وتهالك اجتماعنا وانطفأت عزائمنا وأصبحنا قلوبا شتّى تتقاذفنا شهواتنا، غثاءً كغثاء السّيل تداعت علينا الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها!

والشّاهد أنّنا نعتزّ بأمّتنا الّتي بنت الفضاء العربيّ الإسلاميّ الرّحب، وصنعت الحضارة الّتي سادت الدّنيا لعشرة قرون، ونمنح كأس البطولة، وتاج الفضل في هذا الإنجاز الهائل – بعد فضل الله سبحانه – إلى المجتمع الإسلاميّ الّذي أنجب الملايين من مجاهدي العلم والدّم والمال صانعي هذا الإنجاز العظيم على مرّ العصور.

كما نعتقد أنّ دور مؤسّسات الحكم في العالم الإسلاميّ – وفي معظم الأوقات – كان معطّلا للمزيد من الفتح العادل، وللمزيد من التّقدّم الحضاريّ.

وليس ذلك ناتج – بالضرورة – عن قدح في السّلوك الفرديّ للحاكم أو بعضا ممّن حوله، إذ قد يحتجّ البعض – وما أكثرهم – أنّ الحاكم الفلانيّ كان يقيم اللّيل. ويزهد في كذا، ويحجّ ويغزو، وله من الطّرف والملح مع سمّاره ما يثبت «تقواه»، وتلك سمات فرديّة تحسب لصاحبها إلّا أنّ علاقتها بالصّلاح في مؤسّسة الحكم قد تكون ثانويّة بل وأقل!

إذ إنّ مؤسسة الحكم السّويّة هي الّتي تحافظ على وحدة الأمّة، ورخائها وتقدّمها، واستقرارها وأمنها الدّاخليّ مع عدل حازم في كلّ هذا ومع كلّ النّاس، وكذا البعد عن الاستئثار والتّوريث صونا لمبدأ العدل والمساواة بين النّاس، والأخذ بالشّورى في كلّ شأن

كما أمر الله سبحانه، وحقن دمائها ووأد الصّراعات الدّاخليّة بالعدل، وتجنّب الصّراعات الخارجيّة بالحكمة والإنصاف.

وهب أنّ أميرا قام اللّيل كله، وصام الدّهر وحجّ عاما بعد عام وأنفق ماله كلّه فى سبيل الله، وقاد الغزو، وفوق ذلك أمر كلّ حاشيته الاقتداء به وفعلوا! إلّا إنّه فشل فى حفظ وحدة الأمّة ورخائها، وأمنها الدّاخلىّ والخارجىّ لجهل أو غفلة أو استئثار أو توريث، ومن ثمّ استبداد فقد فشل فى ولايته حيث فشل فى أركان السّياسة الّتى تصلح حال الأمّة وتحفظ مصالحها.

وتكرارا... إنّ القصد من هذا المقال هو استخلاص بعض العبر الموجزة من التّاريخ دون تفصيل لا يفيد فى الأسماء أو الهيئات فضلا عن تقديم الشّواهد بالذّات على ما تقدّم بيانه.. لا نريد أن يقلب الأمر إلى جدل حول فلان أو علّان أو حول حقبة دون أخرى بل حسبنا من الماضى مسار التّاريخ العامّ، وما اكتنفه من صراعات فى الدّاخل ومع الخارج وتبديد للأرواح والأموال طلبا للاستئثار بمؤسسة الحكم والّتى أصبحت مطمعا للمغامرين والأدعياء، وطريقا للمتعة والعلوّ فى الأرض على حساب مصالح الأمّة وتقدّمها، ووحدتها.

ثمّ حسبنا شاهدا حيّا – فضلا عن التّاريخ – ما آل إليه حال الأمّة فى عصرنا الرّاهن، حيث الفرقة والضّعف والهوان والتّخلّف العلمىّ والحضارىّ.

كما قد يحتجّ البعض – وما أكثرهم – أنّ هذه الأمّة ومؤسّسة الحكم فيها ابتليت بمؤامرات الخارج، وتوظيف المندسّين فى الدّاخل وهى بهذا ضحيّة ليس إلّا.

ومن ثمّ فإنّ مؤسّسة الحكم، وقوى الأمّة عامّة بريئة من خطيئة التّجزئة والضّعف والانحطاط

– والحقّ الّذى نراه: أنّ المندسّ الدّاخلىّ الحقيقىّ والوحيد هو المستبدّ ومؤسّسته، وما نشره من أدواء فى المجتمع ولقد استثمر العدوّ الخارجىّ هذا الوضع الشّاذّ قدر طاقته لجلب مزيد من الضّعف للأمّة، وسوف تظهر هذه الرّؤية فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب

– وأمّا الحديث عن المؤامرة فله شجون! والطّريف أنّنا نسمع ذات الادّعاء من أشدّ نظم الحكم تخلّفا وجهلا واستبدادا فى عصرنا الرّاهن.

فما أن تئنّ الشّعوب حتّى يملأ الحاكم الدّنيا صراخا عن طهره، وتآمر القوى المعادية عليه. أليس فى هذا عبرة لمن يحتجّ بهذا عاذرا تقصير من سبق! أليس فى هذا مثلا حيّا معاشا متواترا على زيف هذه الحجّة وتهافتها!.

والقـول فـي هذا إنّنا نقرّ بوجود المؤامرة ابتداءً إلّا أنّنا لا نقرّ بكفاية حجيّتها لمن يعتذر بهـا عـن تقصيره، نقـرّ بتآمر العدوّ على خصمه فـي كلّ عصر ومكان، ونقـرّ بدأبه لبثّ السّـموم في كيانه ومباغتته وإضعافه بل إفنائه إن اسـتطاع! بما في ذلك الشّيطان الرّجيم عدوّ الإنسـان كما أخبر الوحيّ أليس جلّ عمل الشّـيطان الوسوسة والتّزيين لعدوّه اللّدود: الإنسان؟! أليس هذا عين التآمر؟! والإنسان مكلّف من الله عزّ وجلّ بما كلّف به.

هل ورد في التّنزيل أن يعذر الله سـبحانه الإنسـان عن خطاياه الّتي زيّنها الشّـيطان له وتآمر بها عليه ؟! كلا ! بل الحقّ – كما هو إجماع العلماء – أنّ وجود الشّـيطان في الأرض ليس حجّة على الله، وأنّ الإنسان مسؤول عن أعماله أمام الله، وليس له الاحتجاج بالشّيطان، وتزيينه وتآمره.

وما يجري في حال شيطان الجنّ يجري على شياطين الإنس ودسّهم وتآمرهم. هل عذر الله من زين له قرين السّوء الكفر والشّهوات في دنياه ؟! كلا.

إنّ أصـل التّكليـف والابتلاء أن تُنجز الأعمـال مع المحرّضـات بأنواعها فمنها على الإحسان، ومنها على غيره. وهنا مصدر الفضل والأجر لمن طلبه بحقّه، وأعطاه ما يستحقّه من فكر وحيطة، وحكمة وعمل صحيح.

وأمّا طلب العمل في بيئة معقّمة خالية من الأعداء، والمنغصّات فهذه لا مكان لها على الأرض فضلا عن مخالفتها للدّين والعقل.

إنّني أزعم أنّ مقولة المؤامرة، والاحتجاج بها هي من أفدح الآفات الفكريّة الّتي أصابت العقل العربيّ، والعقل المسلم المتديّن بالذّات.

إذ إنّ هذه الآفة تغذّى بروافدها آفات أخرى خطيرة في عقل المسلم وسلوكه ومنها:

١ – تهميـش الفريضـة الجليلة المحوريّة ألا وهي الأمر بالمعـروف والنّهي عن المنكر، وبالدّارج عند المثقّفين في عصرنا «الحسّ النّقديّ».

إذ أنّـا لنا أن ننهى عن منكر حقًا ونحن نضـع طالعا نازلا تكأة المؤامرة عذرا للمقصر، وكيف نأمر بمعروف نبحث عنه إعمالا لفكر، وتوظيفا لخبرة إذا كان اعتقادنا أنّ صاحب القضيّة أحسن التّدبير والعمل إلّا أنّ عمله الصّالح أجهضته المؤامرة؟!

ولك أن تتصوّر أخي القارئ فداحة المصاب في فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. لقـد لعن الله أقواما، وطردهم من رحمته سـبحانه وتعالى جـرّاء قعودهم عن هذه الفريضة الجليلة.

قال تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ المائدة ٧٨، ٧٩.

وقال تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ آل عمران ١١٠

وقال ﷺ «والذى نفسى بيده لتأمرّن بالمعروف ولتنْهونّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثمّ تدعونه فلا يستجاب لكم» (الترمذى ٢١٦٩).

٢ – تهميش الاعتبار بتاريخ الأمّة الزّاخر بالعبر والتجارب. إذ يزعم أصحاب قصّة المؤامرة بدعوى الغيرة على سمعة الأمّة أنّها وقياداتها أحسنت، وما أصابها كان من المؤامرة والمتآمرين، ومن ثمّ لا طائل من دراسة التّاريخ للاعتبار بل نتعقّب فلول المتآمرين فى الدّاخل والخارج، وليس بالإمكان أفضل ممّا كان!

٣ – التّهميش الضّمنىّ لسنّة الأخذ بالأسباب: وكيف يكون الأخذ بالأسباب؟! ونحن نقعد عن دراسة الحوادث والنّوائب والمصائب بتفاصيلها دراسة نقديّة حازمة عادلة مدقّقة، ونقرّ بما هو من عند أنفسنا طلبا لتجنّبه فى بناء المستقبل.. بل نحيل جلّ ذلك إلى المؤامرات والدّسائس وحتّى دون تحديد أو بيان.

إنّ الأسباب تفعل فينا وفى مجتمعاتنا فهمناها أم لم نفهمها، وأعرناها ما لها من أثر محوريّ أم لم نفعل، ولا تأبه بغفلتنا عنها ولا بأوهامنا وأمانينا خارج إطارها السّننىّ الأزلىّ.

قال تعالى ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ النساء١٢٣.

وقال تعالى ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ فاطر ٤٣.

٤ – تفضى قصّة المؤامرة والاتّكاء عليها طالعا نازلا إلى الغرور بالدّين بالباطل، والغرور كلّه شرّ.

قال تعالى فى حق بنى إسرائيل ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ آل عمران٢٤.

والمعلوم من أوصاف أمّة الإسلام أنّها الأمّة النّاجية والخاتمة والشّاهدة والمرحومة، وتقرب هذه الأوصاف من الأمّة بقدر قربها من الإسلام الحقّ إيمانا وفهما وعملا صالحا، وتبعد عن الأمّة بقدر بعدها عن مقاصد الإسلام وغفلتها عن حقيقته وأوامره ونواهيه.

أمّا توظيف هذه الأوصاف من قبل الأفراد والجماعات لتزكية النّفس والتّفاخر دون مسوّغ من إيمان صادق أو عمل صالح فهذا إلباس للحقّ بالباطل، ومن يجترح ذلك إنّما يخدع نفسه وقومه – والله غنيّ عن العالمين – ولن ينجو أحد بادعائه لنفسه أو حزبه أو جماعته بل بميزان حقّ توزن به أعماله عند عزيز مقتدر.

إنّنا نلاحظ هذا السّلوك بأشكال منوّعة، وصور متعدّدة حيث يتمترّس الأفراد والجماعات بقدسيّة الإسلام، وكأنّهم الإسلام بعينه وبقدسيّته.

ومن ثمّ لا مجال للبحث عن تقصير وأخطاء في الفكر والتّدبير والتّنفيذ. بل لا يعدو المصاب عن فعل مؤامرة أو قدر مقدّر جاء من السّماء برغم إحساننا، وصواب صنيعنا. أو أنّ وقت التّمكين لم يحن، وكلّ شيء عنده سبحانه بأجل مسمّى. خلط عجيب واحتجاج ذميم بالقدر وتجميد للعقول والأفكار! وكلّ ذلك كي نخرج نحن وجماعاتنا، ومؤسّسات الحكم، والولايات عندنا منزّهة طاهرة الطّرف.

ويقول لسان حال قائلهم: ألسنا مسلمين مؤمنين؟ وهل يجوز علينا وعلى أفعالنا المراجعة والنّقد والتفصيل؟.. ألم ينهنا الله عن الغيبة؟ (هكذا!) كما لا يجوز على الأموات إلّا الرّحمة (هكذا!)، وأسلافنا صنعوا لنا الأمجاد والممالك والحضارة. ألم نسمع بما قال فلان من الحكّام لفلان في موضع كذا ؟ ألم يفزع المعتصم لنجدة امرأة من المسلمين سألته النّجدة فأدار حربا إنصافا لها ؟! وهكذا.. إنّ التّجزئ والتّسطيح، وسموم الأمثال والمقولات الفارغة من محتواها هو السّمة الغالبة على تناولنا لتاريخنا الزّاخر بالعظات.

أين الدّراسات الجادّة الحازمة الدّقيقة النّقديّة الّتي تتناول ذلك التّاريخ، وتمدّنا بالعبرة والخبرة لبناء مستقبلنا ؟!

لقد قطّب يوما رسول الله المعصوم محمّد ﷺ في وجه أحد أصحابه فنزلت سورة «عبس وتولّى» عتابا له من الله عزّ وجلّ، ونحن نتعبّد بتلاوة آيات تلك السّورة في أرجاء الأرض إلى يوم القيامة.

والعبرة من ذلك أنّ الحقّ أعزّ وأثمن من أن يفرط في البوح به من مقامات الأفراد والجماعات أيّا كان شأنهم وأيا كانت منزلتهم.

ومصلحة الأجيال فى العظة، والتّربية والتّعليم مقدّمة على زائف اللّياقة.

ومعلوم أنّ ثلث القرآن الكريم – الوحى الخاتم – قصص لبعض مَن سلف من الأقوام، وذلك عبرة لمن يعتبر.

قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ يوسف ١٠٩

كما ورد نصّ الآية الكريمة المذكورة أعلاه ذاتها فى مناسبات عديدة فى القرآن الكريم وفى الآيات (الروم ٩) ، (فاطر ٤٤) ، (غافر ٢١، ٨٢) ، (محمد ١٠).

ونرى أنّ التّركيز على معنى الاعتبار بالتّاريخ فى الوحى الخاتم كما بيّنته الآيات السّابقة الذّكر دليل قطعىّ على محوريّته فى المعرفة الإنسانيّة، وأن لا يلدغ النّاس من جحر واحد مرّتين!

ومن ثمّ نحن مكلّفون بشقّين :

(أ) الاعتبار بما قصّه القرآن الكريم من سير الأقوام السّالفة.

(ب) وكذا تأسّيا بالقرآن الكريم واتباعا لأوامره ومقاصده أن نتفكّر فى سير أقوام لم يذكروا فى القرآن أو عاشوا بعد تمام الوحى الخاتم، وأن نستخلص العبرة والخبرة من ذلك والآية الكريمة واضحة فى الأمر بذلك «عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» وقبلهم تعنى لنا وللأجيال من بعدنا كلّ ما كان قبلنا وقبل الأجيال القادمة ولو بساعات معدودة ولكلّ النّاس.

فأين نحن من هذا التّكليف ؟!

إنّنى أزعم أن جلّ اهتمامنا عامّة وخاصّة، ومن ثمّ ما استقر فى ثقافتنا انصبّ على تفاصيل العبادات وبعض الأحكام. وأمّا العبر والمقاصد العامّة فبقيت فى معظمها رهن خزائن المكتبات ودوائر البحث الضّيّقة، وهذا عطفا على قصص القرآن الكريم! وأمّا ما خلا ذلك من قصص وعبر فى سيرة أقوام آخرين قبل وبعد الرّسالة بما فى ذلك سيرة أمّتنا الإسلاميّة، وتاريخها بعد الرّسالة فحدّث ولا حرج.

جلّ تاريخنا سرد لسير الملوك والسّلاطين، ووصف لحياتهم الخاصّة، وتدوين لطرفهم وأقوالهم.

وأمّا الدّراسات التّاريخية النّقديّة الاجتماعيّة الاقتصاديّة والسّياسيّة الجادّة فغائبة أو تكاد. وكأنّنا نصرّ إصرارا أن لا نتعلّم من تجاربنا السّابقة !

قال الشّاعر: ولا خير فيمن لم تعلّمه التّجارب!

ويخطر لنا أمر لا بدّ من تسجيله:

إنّنى أرى أنّ تفسيرنا لإنجاز الأمّة من فتوحات وحضارة، ونسبة ذلك لمقامات الحكّام، ونسياننا الضّمنىّ لجهود الآلاف المؤلّفة من الشّهداء والعلماء الّذين أنجزوا ذلك، لا يخلو هذا المنحى من آثار التّخلّف الّذى أصاب نفوسنا، وأصبحنا به – وفى تضادّ مع عقيدة الحرّيّة والمساواة الّتى نتدّين بها – نترجم شعورا بالدّونيّة والانسحاق أمام السّلطة أيّا كانت، ونفسّر التّاريخ تفسيرا طبقيّا منحرفا. إذ نقول – ضمنا – إنّ وجهاء السّلطة والمال أيّا كان حالهم، وفى كلّ عصر هم مَن أنجز العزّة والكرامة لنا. وهذا قطعا مخالف للواقع.

ولعمرى إنّ دم شهيد واحد مخموم القلب قدّم نفسه فى سبيل الله أكرم عند الله سبحانه وعند العقل السّوىّ من فريق كبير من مستبدّى ومترفى الحكّام؛ وزمرهم عبر التّاريخ.

كما انسحب الشّعور بالدّونيّة هذا باتّجاه السّلطة والسّلطان إلى كتابتنا للتّاريخ فسجّلنا تفصيلا سيرة الحكّام مهما كان حالهم بل واعتذرنا لهم، ووصفنا ضعفاءهم – دون مسوّغ – بالعلم والحلم والحكمة وغير ذلك، ونسينا الجنود المجهولين صانعى الفتوحات والحضارة، وكلّ ذنبهم أنّهم لم يولدوا من أصلاب ملوك ليس إلّا!

وعود على تقصيرنا فى دراسة التّاريخ نقول:

وأمّا تاريخ الأمم الأخرى من غير المسلمين قبل الرّسالة وبعدها فغائب بالكلّيّة عن تفكّر مثقّفى الأمّة، وأحوال معظمهم وخاصّة المتديّنين منهم يقول: ما لنا مثلا وتاريخ بريطانيا وفرنسا والصّين القديم والحديث بل وحاضرها أيضا. أليس لدينا الوحى الخاتم ؟! ولم إضاعة الوقت والجهد فى هذا الفضول؟! هذا لسان الحال لأمّة أمرت أمرا فى الوحى الخاتم الّذى تتشدّق به نصّا وضمنا بدراسة قصص قاطنى الأرض واستخلاص العبرة من ذلك!

وفى السّياق – كمثال – نذكر أنّه لم يقتل بريطانىّ واحد خلال ثلاثة قرون خلت من الزّمان بسبب الصّراع على مؤسّسة السّلطة والحكم (أى منذ عام ١٦٨٨م عام الثورة البريطانية الديمقراطية التى أسماها الإنجليز «الثورة المجيدة»! برغم أنّ بريطانيا واجهت فى القرون المذكورة سبعين حربا وأزمة وبنت إمبراطوريّة لا تغيب عنها الشّمس. ثمّ انسحبت منها وخاضت حربين عالميتين. وكان يحيط بها المنافسون والأعداء من كلّ حدب

وصوب كما تآمروا عليها ما وسعهم الجهد! فهل سأل بعضنا جادًا فى دراسة تحليليّة معمّقة عن سرّ هذا الاستقرار والاستمرار؟! ولعلّ ذلك ينفعنا فى البناء والعمل.

أم شغلنا التّفاخر بتاريخنا حلوا ومرّا ؟! ومضغ العبارات والشّعارات الّتى لا تسمن ولا تغنى من جوع!

ثمّ كم خسرنا نحن أمّة التّوحيد من الأرواح والأموال فى الصّراع على السّلطة، وطلبا للحكم والإمارة خلال تلك القرون الثلاث ؟!.. أليس ملايين الأرواح، وما لا يحصى من الأموال والطّاقات! ومعظم ذلك فى ظلّ سلطات تزعم أنّها تحكم بالإسلام، وتقيم تعاليمه!

وهدى ديننا يقول: «إنا و الله لا نولى على هذا العمل أحدا سأله و لا أحدا حرص عليه» (مسلم ١٧٣٣) وأيضا «مَن ولّى على المسلمين أحدا وهو يعلم مَن هو خير منه فقد برئت منه ذمّة الله ورسوله» صدق رسول الله.

ولم لم نتساءل عن سرّ هذا التّناقض الفادح فى المشهد؟! أمّة لا تدين بالإسلام، وتأخذ بالعقلَ البشرىّ المحض، تنعم بالاستقرار والرّخاء والاستمرار، وبالعلم والإبداع والشّورى، وأمّة مسلمة حالها ما نحن عليه! حسبنا الله ونعم الوكيل.

ثمّ مثال آخر: الهند الّتى عانت من الاستعمار لقرون، واستقلّت فى منتصف القرن العشرين. هذا الكيان الموحّد العجيب! له ألفا لغة ولهجة منها أربعة عشر لغة رسميّة! وبه مئات الأديان والمذاهب والملل، وتعداد شعبه جاوز اليوم مليارا من البشر يقطن قارّة ضخمة تبعد أطرافها آلاف الأميال، وبه من الفقر والعوز والأمّيّة ما يفوق ما عندنا.وبرغم كلّ هذه المعطيات المُصعّبة للوحدة والاستمرار والاستقرار ينعم بسلام سياسىّ وديمقراطيّة راسخة منذ استقلاله. تستغرق عمليّة انتخاب مجلسه التّمثيلىّ (البرلمان) شهورا عدّة، ثمّ تظهر النّتائج فيستلم السّلطة من حاز الأغلبيّة فى هدوء وسلاسة، ولم يسجّل تاريخ البلد احتجاجا ذا شأن على نزاهة الانتخابات وصدقيّتها منذ سّتين عاما! ولم يبتلى هذا البلد بانقلاب عسكرىّ واحد على مستوى الدّولة المركزيّة أو مستوى الأقاليم طيلة سّتين عاما أيضا! فهل درسنا هذا؟! ولعلّنا نجد ما ينفع فى علاج حالنا الرّاهن البائس فى الاستقرار السّياسّى والاستبداد، ومفصل الصّراع على السّلطة! والجواب كلا تامّة.

٥ – كما تفضى مقولات المؤامرة والتّوظيف الغافل لها – بل أفضت فعلا – إلى إنكار قطاع واسع من النّاس لكثير من حوادث التّاريخ الإسلامىّ! وحتّى المتواتر منها!

إذ إنّ السّائد فى الوعظ، وفى تربية النّاس هو الإكثار ليل نهار تمجيدا لما عمل أسلافنا المسلمون والعرب.

ويقتصر الوعظ، والمنشور منه فى الكتب السّيّارة على قصص البطولة، ومواقف النبل والشّهامة والفداء.

وعليه ينشأ جيل من المتعلّمين لم يسمع إلّا أحسن القصص عن تاريخ العرب والمسلمين، ومن ثمّ يرى أنّ العودة لما كان هو غاية المرام! ومقارنة بما نحن فيه من هوان وضعف.

إلّا أنّ حقيقة التّاريخ هى خليط من الغثّ والسّمين، وفى تاريخنا الكثير الّذى نعتزّ به. (١١) وفيه أيضا ما تقشعرّ له الأبدان (١٢).

والشّاهد أنّ التّثقيف الانتقائىّ للنّاشئة يصيب الوعى بآفة خطرة. إذ يجعل جلّ نظرنا إلى الخلف بدلا أن يكون إلى الأمام لنبنى المستقبل بعد استيعاب دروس الماضى بما له وما عليه.

كما أنّ من نشأ على تثقيف انتقائّى من التّراث تجده وقد وقعت تعبئته ذهنيّا ونفسيّا فى هذا الاتّجاه الّذى نزّه التّاريخ الإسلامىّ جملةً: حكّاما ومحكومين!.. فإذا حدث أن واجه هذا المتعلّم من يبصّره لاحقا بأنّ ما يعتقده من جنّة الماضى ليس دقيقا، وأنّ الصّورة بحاجة إلى توازن، وأنّ الشّاهد على ذلك من كتب التّاريخ كذا وكذا.. تجده ينتفض غاضبا محتجّا لما أصاب حلمه الجميل بالماضى من تشويه.

ثمّ يلجأ إلى مخزن المؤامرة دون بيّنة!! وأنّ دسّ الأعداء وصل إلى التّاريخ الإسلامىّ. ووضع فيه ما وضع كيدا بالمسلمين وتشويها لفضائلهم، والتى خلت فى نظره من الشّوائب.

ولقد انسحب هذا النّمط من الدّفاع الخالى من المنطق حتّى على أعتى جبارى التّاريخ الإسلامىّ، ومن ورد متواترا فى سيرتهم البطش والقسوة والتّنكيل لأتفه الأسباب.

ومن ثمّ وفى هذا المقام، لا بدّ أن نذكّر بضرورة النّظر مجدّدا فيما نقدّم للنّشئ كتابة ومشافهة لنبنى فى النّتيجة عقولا مستنيرة، ونفوسا متوازنة تعرف الأمر على حقيقته. ومن ثمّ تبنى على الحقائق مستقبلا جديدا للأمّة.

والله من وراء القصد.

❑❑❑